﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١﴾ [مريم: 88 - 91]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أبطلَ مطلقَ الشّفعاءِ وكانَ الولدُ أقربَ شفيعٍ أبطلَ دعواهُم بنسبةِ الولدِ إليه سبحانهُ

لَمَّا كانَ منْ شأنِ الآيةِ السَّابقةِ إبطالُ الشّفعاءِ على وجه الإطلاقِ، وكانَ الولدُ أقربَ شفيعٍ، أبطلَ هنا دعواهُم نافيًا ما يكونُ من الشّفعاءِ خاصِّهم وعامِّهم؛ فيكونُ كلُّ عزٍّ أرادوهُ بشفاعةِ آلهتهم مردودًا، وقدِ ادّعوا منْ قبلُ أنّ لهُ ولدًا سبحانهُ، وهو من أعظمِ القولِ والافتراءِ على اللّه سبحانهُ، فإنّ ثقلهُ لا تتحملهُ السّمواتُ والأرضُ والجبالُ؛ لأجلِ أن دَعَوْا له ولدًا، وكلّ ما سواهُ هو من نعمِه وأفضاله[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِدّٗا﴾: أَصْلُ الأَدِّ: الشِّدَّةُ والثِّقَلُ[2] الإِدُّ: الأَمرُ الفَظيعُ العَظيمُ، يُقال: أَدَّني الأَمرُ، يَؤُدُّني، أَدًّا: إذا أَثْقَلَني وعَظُمَ عليَّ[3]. ويأْتي بمعنى الغَلَبَةِ والقوَّةِ، والإِدُّ أيضًا: القَويُّ، ويُسْتَعْمَلُ لِمَعانٍ أُخْرَى مِنْها: العَجَبُ، والمُنْكَرُ، والشَّنيعُ، والصَّعْبُ، وجَمعُه: إِدَدٌ، وآدادٌ[4]، والمراد بالإدِّ في الآية: الأمرُ المُنكر، الَّذي يُثقِلُ كاهل صاحبه، ويقصم ظهره[5].

2) ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾: (فطر) أَصْلٌ يَدُلُّ على فتْحِ شَيءٍ وإبرازِه[6]، فطَرَ الشَّيءَ يَفْطُرُه فطْراً فانْفَطَر وفطَّرَه: شَقَّهُ، وتَفَطَّرَ الشَّيءُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 248.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أدَّ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أدد).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أدد).
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 771.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فطر).

تَشَقَّقَ، والفَطْرُ: الشَّقُّ، وجَمعُهُ فُطور، ويُقالُ أيضًا: فطَرَ البِئرَ، يَفطُرها، فطْرًا، أي: شَقَّها وحَفَرَها، والفَطْرُ: الخَلْقُ والإنشاء، يُقالُ: فطَرَ اللّه الخَلْقَ، أي: خَلَقَهُم وأنشأهُم[1] والمرادُ بالتَّفَطُّرِ في الآية: الانْشِقاقُ، وهو مُطاوِعُ التَّفْطيرِ الَّذي هوَ تَكْريرُ الشَّقِّ[2].

3) ﴿وَتَنشَقُّ﴾: (شقّ) أَصْلٌ واحِدٌ صحيحٌ يَدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه ويُشتَقُّ منه على معنى الاستِعارَةِ، تَقولُ شَقَقْتُ الشَّيْءَ أَشُقُّهُ شَقًّا، إذا صَدَعْتَهُ، وبيَدِه شُقوقٌ، وبالدَّابَّةِ شُقاقٌ، والأَصلُ واحدٌ، والشِّقَّةُ: شَظيَّةٌ تُشَظَّى مِنْ لَوْحٍ أَوْ خَشَبَةٍ[3]، ومِنَ البابِ: الشِّقاقُ: الخِلافُ والعَداوةُ، يُقالُ: شاقَّه، مُشاقَّةً وشِقاقًا: إذا خالفَهُ[4]، والشِّقُّ أَيْضًا: النَّاحيَةُ مِنَ الجَبَلِ، وهو الشَّقيقُ أيضًا، يُقالُ: هَذا أَخي وشَقيقي وشِقُّ نَفْسي، والمَعْنَى أَنَّهُ مُشَبَّهٌ بِخَشَبَةٍ جُعِلَتْ شِقَّيْنِ، والشُّقَّةُ: مَسيرٌ بَعيدٌ إِلَى أَرْضٍ نَطيَّةٍ، تَقولُ: هَذِه شُقَّةٌ شاقَّةٌ[5] والمقصودُ بالشَّقِّ في الآية: الإبْعادُ بَيْنَ ما كانَ مُتَّصِلًا[6].

4) ﴿وَتَخِرُّ﴾: (خرّ) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو اضْطِرابٌ وسُقوطٌ مَعَ صَوْتٍ[7] فالخَريرُ: صَوت الماء والرّيح والعُقابِ وغير ذلك ممَّا يسقط من علوّ[8]، وخَرَّ للّه ساجِدًا يَخِرُّ خُروراً، أَي: سَقَطَ سقوطًا يُسمَعُ منه خَريرٌ[9] وخَرَّ الحَجَرُ يَخُرُّ خُروراً: صَوَّتَ في انْحِداره، بِضَمِّ الخاءِ، مِنْ يَخُرُّ، والخارُّ: الَّذي يَهْجُمُ عليْكَ مِنْ مَكانٍ لا تَعْرِفُهُ؛ يُقالُ: خَرَّ علَيْنا ناسٌ مِنْ بَني فُلانٍ، وخَرَّ الرَّجلُ: هَجَمَ عليْكَ مِنْ مَكانٍ لا تَعْرِفُهُ[10] والمراد بالخُرورِ في الآية: السُّقوطُ، أَيْ سُقوطُ الهَدْمِ، وهو أَنْ يَتَساقَطَ شَظايا وقِطَعًا[11].

5) ﴿دَعَوْاْ﴾: (دعو) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو أَنْ تُميلَ الشَّيْءَ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ، تَقولُ: دَعَوْتُ أَدْعو دُعاءً، والدَّعْوَةُ إِلَى الطَّعامِ بِالفَتْحِ، والدِّعْوَةُ في النَّسَبِ بِالكَسْرِ، قالَ

(1) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ: (فطر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 170، و25/ 30.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقّ).
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (شقّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقَّ).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 131.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرَّ).
(8) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (خرَّ).
(9) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خرر).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (خرر).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 70، و71.

أَبو عُبَيْدَةَ: يُقالُ في النَّسَبِ دِعْوَةٌ، وفي الطَّعامِ دَعْوَةٌ[1]، والدَّعْوَى: الادِّعاءُ، قالَ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ [الأعراف: 5][2] قالَ الخَليلُ: الادِّعاءُ أَنْ تَدَّعيَ حَقًّا لَكَ أَوْ لِغَيْرِكَ[3] تَقولُ ادَّعَى حَقًّا، أَوْ باطِلًا، والدَّعْوَى أيضًا: الدُّعاء، قال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: 10][4] والمقصود بـ﴿دَعَوْاْ﴾ في الآية: نَسَبوا، وهو قَولٌ يَطْلُبُ به الإنسانُ إِثْباتَ حَقٍّ على غَيْرِه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تقريرُ التَّوحيد، وإثباتُ العبوديَّة الخالصة لله، وإنكارُ اتِّخاذ الله ولدًا

يستطرد السّياق القرآني، إلى حكاية أقوال أخرى، من أقوال الكافرين الباطلة، وهي زعمهم أنَّ للّه تعالى ولدًا، فقال سبحانه: وقال هؤلاء الكافِرونَ: اتَّخذَ الرَّحمنُ ولدًا له، لقد قلتُم قولًا عَظيمًا مُنكَرًا، بافترائِكم على اللّه أنَّ له ولدًا، تكاد السَّمواتُ على عَظَمتِها وإحكامِها تتشَقَّقُ قِطَعًا عند سماعِها ذلك القَولَ العَظيمَ المنكَرَ؛ إعظامًا للرَّبِّ، وإجلالًا له سُبحانَه، وتكادُ الأرضُ تتصَدَّعُ؛ تعظيمًا له سُبحانَه، وتكادُ الجِبالُ على صلابتِها تسقُطُ سَريعًا، فتندَكُّ وتتفَتَّتُ، من أجلِ أنَّ المُشرِكينَ نَسَبوا للرَّحمنِ ولَدًا[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطف القصَّةِ على القصَّة:

المعاني السياقيةُ آخــذٌ بعضها بعُرى بعضٍ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ تدلّ على العطفِ؛ فهو عطفٌ على ما تقدّمَ من قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ [مَرْيَم: 66]، أو على قولِه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (دعا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(4) الراغب، المفردات: (دعا).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 635، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 265، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 169، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 501.

تتميمًا لحكايةِ أقوالِهم بأنّ للّه ولدًا، وقولِ المشركين إنّ الملائكةَ بناتُ اللّه[1]؛ فهي من عطفِ القصّةِ على القصّة؛ لأنّ هؤلاءِ مشتركون في الضّلالةِ، فكان أنْ حكى الحقّ سبحانَه جنايتَهم، وما ادّعوه بعدَ جنايةِ عبدةِ الأصنام[2].

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿وَقَالُواْ﴾:

إدانةٌ عقديَّة ملزمةٌ لقيل الباطلِ

التّعبيرُ بالفعلِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ دالٌّ على الثّبوتِ والتّحقّقِ فلا يستطيعون إنكارَ ما قالوه من إشراكِهم باللّه باتخاذِه الولدَ، وأن جعلوا الملائكةَ بناتَه بناتِه، تعالى اللّهُ عمّا يقولون علوًّا كبيرًا، وفي ذلك إدانةٌ عقديَّةٌ لما صدر عنهم من قيل الباطلِ.

تعيينُ مرجعِ الضّميرِ في ﴿وَقَالُواْ﴾:

الضميرُ راجعٌ إلى المشركين أصالةً وغيرهم ممن شابههم تبعًا

يرجع الضّميرُ في الفعلِ: ﴿وَقَالُواْ﴾ إلى هؤلاءِ الكفرةِ بعدَ قولِهم الشركيّ وإنكارِهم البعثَ والنّبوّةَ[3]؛ للإشارةِ إلى أنّ قولَ المشركين هذا ليسَ محضَ إخبارٍ عنهم، أو تعليمَهم، ولكن تفظيعًا لقولِهم، وتشنيعًا له[4].

ويشملُ الضّميرُ في الفعلِ: ﴿وَقَالُواْ﴾ جميعَ من أطلقَ هذا القولِ الباطلِ، وتفوّهَ به سواءً أكانَ قولَ اليهودِ في عُزيرٍ، والنّصارى في المسيحِ، والمشركين في الملائكةِ[5].

بلاغةُ التّعريضِ بالنّصارى:

مشابهةُ النّصارى المشركينَ في نسبةِ الولدِ إلى اللّه

في عودِ الضّميرِ في الفعلِ: ﴿وَقَالُواْ﴾ على المشركين عامّةً، تعريضٌ بالنّصارى لمشابهتِهم المشركين في أنّهم نسبوا الولدَ للّه تعالى، وهو تكملةٌ لما أبطلَه الحقّ سبحانَه من قولِهم: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُۥٓ﴾ [مَرْيَم: 35][6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 196.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 364.
(3) ملا حويش، بيان المعاني: 2/ 178.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 169.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 73.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 170.

نكتةُ التّعبيرِ بالقولِ عن الاعتقادِ:

القول كنايةٌ عن الاعتقادِ

فعلُ القولِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ دالٌّ على الاعتقادِ واليقينِ من لدنِ هؤلاءِ؛ فقولُهم مبنيٌّ على الإيمانِ بذلكَ، والاعتقادِ بوقوعِه، فلم يصدرْ عنهم هذا القولُ إلَّا تأييدًا لفظيًّا لما عبدوه حقيقةً من غيرِ اللّه تعالى كالمسيحِ ونحوِه، فهو كنايةٌ عن معتقدهم.

دلالةُ جمعِ الضميرِ في ﴿وَقَالُواْ﴾:

القائلونَ جمعٌ وهم مشركو العربِ واليهودُ والنّصارى

أسندَ فعلَ القولِ إلى الواوِ الدَّالّ على الجمعِ؛ لأنَّ القائلينَ جمعٌ، وهم مشركو العربِ بقولهم: الملائكةُ بناتُ اللّه، وهم اليهودُ بقولِهم: عزيرٌ ابن اللّه، والنّصارى بقولِهم: المسيحُ ابن اللّه؛ فالفعلُ ﴿وَقَالُواْ﴾ يشملُ هؤلاءِ القائلينَ[1] جميعًا.

سرّ إيثارِ صيغة الاتّخاذِ:

أمارةُ فسادِ اعتقادهم زعمُهم أنَّ الله اتَّخذ ولدًا بتكلف عملٍ زائد

صيغةُ (أخذَ) إذا لم تكنْ ثلاثيةً مجردةً بأن دخلَ عليها تاءُ الافتعالِ؛ فإنّ المعنى يصبحُ محصورًا في الجعلِ مع إضافةِ هذا الجعلِ إلى المتّخذِ نفسِه بأن يخصّ هو الشّيءَ المتَّخَذَ بالولاءِ، أو الاستئثارِ به[2]؛ فهم متّخذوه من عندِ أنفسِهم متكلّفين في القيامِ به، مجتهدين في إثباتِه.

وجاءَ النَّظم بلفظِ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ تعريضًا بالاستهزاءِ بهم بأنّ كلامَهم لا يلتئمُ لأنّهم أثبتوا ولدًا للرّحمنِ، ويقولون اتّخذه الرّحمن، والاتّخاذُ الاكتسابُ وهو ينافي الولديةَ؛ إذ الولديةُ تولّدٌ بدونِ صنعٍ، فإذا جاءَ الصّنعُ جاءت العبوديةُ لا محالةَ، وهذا التّخالفُ هو ما يعبّرُ عنه في علمِ الجدلِ بفسادِ الوضعِ، وهو أن يستنتجُ وجودُ الشّيءِ من وجودِ ضدّه كما يقولُ قائلٌ: القتلُ جنايةٌ عظيمةٌ فلا تكفِّر مثلَ الرّدّةِ[3].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 7/ 261.
(2) المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 2/ 355.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 684.

دلالةُ الماضي في الفعلِ ﴿ٱتَّخَذَ﴾:

تقبيح دعوى المشركين بزعمهم الباطل بتحقُّقِ وثبوت ما افتروه

لَمَّا أراد المشركون تحقيقَ بغيتِهم في التّجنّي على الحقِّ سبحانَهُ، والافتراءِ عليه بما ينصرُ مذهبَهم، عبّروا بالفعلِ الماضي ﴿ٱتَّخَذَ﴾، وكأنَّ الأمرَ حاصلٌ لا محالةَ، وفي ذلكَ تبكيتٌ وتقبيحٌ لدعواهُمُ الّتي ساقوها منْ غيرِ دليلٍ، وهي محضُ افتراءٍ وبهتانٍ، ولوْ سيقَ الكلامُ بالفعلِ المضارعِ لكانَ أقلّ شناعةً؛ لأنّهُ محتملُ الوقوعِ، فالكلام هنا جارٍ على المبالغة في التهويل من فظاعة هذا القول بحيث إنه يبلغ إلى الجمادات العظيمة فيُغيّر كيانها.

بلاغةُ اختيار اسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دونَ اسمِ الجلالةِ:

من أنكر معرفةَ الرَّحمنِ كيف يدَّعي معرفةَ اتخاذِه ولدًا

لَمَّا أنكر المشركون لفظَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ولا يقرّون به، وما كانَ من شأنِ إنكارِهم له بقولِه تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: 60]، لَمَّا كانَ ذلكَ كذلكَ ذكرَ اسمَ الرّحمنِ، ونصّ عليه هنا من دونِ اسمِ الجلالةِ؛ قصدًا لإغاظتِهم بذكرِ الاسمِ الّذي أنكروه، وإيماءً إلى منافاةِ وصفِ الرّحمنِ بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[1]، أي: (الرّحمن الذي ما عرفتموه هو الرحمن الذي ادّعيتم أنَّه اتخذ ولدًا).

غرضُ تنكيرِ ﴿وَلَدًا﴾:

لاشتمال الإنكار والنفي لكل افتراءٍ حاصلٍ

والتّعبيرُ بالولدِ منكّرًا في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا﴾؛ لاشتمال الإنكار والنفي لكلِّ ما زُعم أنَّه ولدٌ للّه تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا؛ فإنّ اليهودَ قالوا: إنّه عزيرٌ، وقالت النّصارى: إنّه المسيحُ، وقالت مشركةُ العربِ: إنّها الملائكةُ[2].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿وَلَدًا﴾:

لا يستنكف الكافر أن يُلقي الفرية على الواحد الأحد

في قولِه تعالى: ﴿وَلَدًا﴾ قرأَ حمزةُ والكسائي ﴿وُلۡدًا﴾ بضمِ الواوِ وإسكانِ اللّامِ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 170.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 248.
(3) الداني، جامع البيان: 3/ 1346.

فعلى قراءةِ الجمهورِ (الوَلَدُ) اسمُ جمعٍ لمفرده، أمَّا قراءةُ الضّمّ والسّكونِ (وُلْد) فهو جمعٌ مكسّرٌ جمعُ (وَلَد) مثل (أَسَدٌ) و(أُسْدٌ)[1]، والقراءتانِ متكاملتانِ تكمّلُ إحداهُما الأخرى؛ فالولدُ على قراءةِ الجمهورِ بمعنى اسمِ الجمعِ، وعلى قراءةِ غيرهم دالّ على الجمعِ.

ومن لطيف التوجيه هنا قول الأخفش إن (الولَد) بالفتح: الابن والابنة، و(الوُلد) بالضم: الأهل[2]، وقد رمى المشركون الذات العلية بهاتَين الفريتَين في محكم التنزيل. فأدَّتْ كلُّ قراءةٍ وظيفتَها في خطابِ النَّاس.

بلاغةُ فصلِ جملةِ ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾:

جملةٌ مستأنفةٌ لبيانِ شناعةِ وفظاعةِ دعواهُم اتّخاذِ الرّحمنِ ولدًا

جاءتْ جملةُ ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ مفصولةً عمَّا سبقَها من كلام؛ لأنّها جملةٌ مستأنفةٌ تبيّنُ ما تقتضيه جملةُ ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ من التّبشيعِ والتّفظيعِ والتّقبيحِ[3]، ولأنّها ردّ لمقالتِهم المنكرةِ الباطلةِ، وتهويلٌ منها؛ فإنّهم قد بلغوا بذلكَ القولِ غايةَ الوقاحةِ، ونهايةَ الجهلِ، وقصارى الجراءةِ[4].

بلاغة الالتفات من الغَيْبةِ إلى الخطاب وفائدته:

الإيماءُ إلى تناهي الغضب في بيانِ اجترائِهم وكبير افترائهم

لَمَّا كانَ خطابُه غَيْبَةً في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، وجّهَ كلامَه إليهم مباشرةً بقولِه: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ في التفاتٍ في الكلامِ من الغيبةِ إلى الحضورِ، يرمي إلى إبلاغِهم التّوبيخَ بطريقٍ شديدِ الصّراحةِ بما لا لبسَ فيه من بيانِ المرادِ[5]، على أن قائلاً مثل قولهم، ينبغي أن يكون موبَّخا، وتوبيخ الحاضر أبلغ في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 159.
(2) مكي بن أبي طالب، الكشف: 2/ 92.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 170.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 282.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 170.

الإهانة من الغائب[1]، وفيه إيماءٌ إلى تناهي الغضب، وشدّته منه تعالى[2]، وفيه زيادة التسجيل على قائلي هذا القول بالجرأة على الله، والتعرض لسخطه، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه.

وفائدةُ هذا الالتفات تحقيق غرضَيْن: **الأول:** تَثْبيتُ المؤمنين على عقيدة تنزيه الله عمَّا لا يليق به سبحانه؛ فيدخل في باب الإيقاظ والتنشيط، **الثاني:** تَأْنيبُ المفترين على الله بأنَّهم ارتكبوا أمرًا بالغ النكارة والفظاعة والشناعة، مع الاقتصاد والإيجاز في العبارة[3].

نوعُ اللَّامِ ودلالتها:

قَسَمٌ دالٌّ على فظاعةِ ما جاؤوا بـه وعـظـمةِ ما نطقوا به

في قولِه: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾؛ لَمَّا أرادَ الإشارةَ إلى أنّهم أتوا شيئًا فظيعًا، وقولًا عظيمًا باتّخاذه سبحانهُ ولدًا، جاءَ باللَّامِ الواقعةِ في جوابِ قسمٍ محذوفٍ تقديرُه: (وعزّتي)[4]؛ فالقسمُ يؤتى به لما عظمَ من الأمورِ، ولا أعظمَ ممَّا أتوا به من هذا الكلامِ الفظيعِ العجيبِ المنكرِ الّذي تَقشعِرُّ لهولِه الأبدانُ[5].

بلاغةُ التّوكيدِ بـ﴿لَّقَدْ﴾:

تـوكـيـدُ صـدورِ الفظائعِ يزيدُها شناعةً وبشاعةً

ادّعاؤهمُ اتّخاذَ الحقِّ سبحانهُ الولدَ منْ أعظمِ الأقوالِ وأنكرِها، وممَّا قيلَ كذبًا وزورًا[6]؛ فكانَ وصفهُ بالشيءِ العظيمِ العجيبِ ممَّا به حاجةٌ للتّوكيدِ؛ فجاءَ بـ﴿لَّقَدْ﴾ الّتي تفيدُ التّوكيدَ والتّحقيقَ[7]؛ لبيانِ بشاعةِ ما ارتكبوه، وفظاعةِ ما نسبوه.

مناسبةُ استعمالِ فعلِ المجيءِ:

الافـــتـراء على درجـــاتٍ منها اليسير ومنها الصعب العسير

في قولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ آثرَ استعمالَ فعلِ المجيءِ

(1) قحطان، الالتفات في البلاغة العربية، ص: 180.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 248.
(3) الميداني، البلاغة العربية: 1/ 493، وينظر: يحيى العلوي، الطراز: 2/ 73.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 248.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 73.
(6) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 387.
(7) ابن مالك، شرح التسهيل: 1/ 29.

على فعلِ الإتيانِ، والسّرّ في هذا الاستعمالِ أنّ المجيءَ يستعملُ لما فيه صعوبةٌ ومشقّةٌ ولأيٍّ[1]، ولَمَّا كانَ ما جاؤوا به شيئًا عظيمًا منكرًا كانَ من المناسبِ التّعبيرِ عنه بالمجيءِ؛ فإنَّه كاشفٌ أنَّ صدورَ مثل هذا الأمر لم يكن سهلًا؛ فإنَّه ما كان أن يُنسبَ الولدُ إليه سبحانَه، تعالى اللّهُ عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ إلا بطول تفكيرٍ وقوة افتراء، فلمَّا تمكَّن منهم الافتراء جاؤوا به.

دلالةُ جمعِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿جِئْتُمْ﴾:

المفترون جمعٌ من اليهودِ والنّصارى والعربِ

معنى ما جاؤوا به هوَ دعواهُم باتّخاذِه ﷻ الولدَ، وأنّ فاعلي هذا الفعلِ جمعٌ، منهم اليهودُ والنّصارى والمشركون من العربِ[2] وغيرُهم؛ فقد جعلَ الفاعلَ جمعا بقولِه: ﴿جِئْتُمْ﴾ تعبيرًا عن تلكَ الجموعِ، وتقريعًا لما كانَ من فعلِها الجمعيّ.

بلاغةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿جِئْتُمْ﴾:

الأفعالُ المتحقّقةُ أشدُّ ذمًّا من مجرَّدِ الأقوال

التّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿جِئْتُمْ﴾؛ للدّلالةِ على وقوعِ الحدثِ وتحقّقِه على وجه اليقينِ بلا ريبٍ أوْ شكٍ، وفيه ذمٌّ لفعلِهم هذا، وكمالُ السّخطِ الواقعِ عليهم؛ فالمعنى أنّكم فعلْتم فعلتَكم هذه الّتي تكادُ السّمواتُ يتفطّرنَ منها؛ لقبحِها وعظمِها، فهم قالوا ابتداءً، ثم تحول قولهم إلى أفعالٍ واعتقاداتٍ يُدافَع عنها.

فائدةُ تعدية فعل المجيء بذاته:

بيانُ أنَّ المفترين فعلوا الافتراء بعد أن لم يكن موجودًا

في قولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ تعدّى الفعل ﴿جِئْتُمْ﴾ إلى المعمول ﴿شَيْئًا﴾ من غيرِ واسطةِ حرفِ الجرّ، وهو من بابِ الحذفِ والإيصالِ؛ فالمعنى جئتم بشيءٍ إدّ، أي: فعلتُم أمرًا عجيبًا منكرًا بالغَ العظمةِ[3]، وفائدته تصوير أنَّهم جاؤوا الشَّيء ذاته؛ فهم صنعوه وفعلوه بعد أن لم يكن موجودًا.

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 97.
(2) السيوطي، الدر المنثور: 3/ 334.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 454.

دلالةُ تنكيرِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

في تنكيرِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ دلالةٌ على التّعظيمِ والتّهويلِ لهذا الافتراءِ والبهتانِ، الّذي اضطربتْ له السّمواتُ والأَرضُ حتّى كادتا أن تزولا تفطّرًا وتشقّقًا وهدًّا.

بلاغةُ الوصفِ بـ﴿إِدّٗا﴾:

الافتراءات النادرة العجيبة تُناسبها ألفاظ غريبةٌ

لَمَّا كانت مقالتُهم تلكَ من الشّناعةِ والقبحِ ما لا يحيطُ به الوصفُ عُبِّرَ عن ذلكَ بالإدّ، ومعناه الشّيءُ العجيبُ العظيمُ المنكرُ، ومنه الإدّةُ بمعنى الشّدّةِ والثّقلِ[1]؛ فيدلُّ اللفظ على التّناهي في المنكرِ، والغايةِ في الفظاعةِ، وهوَ أمرٌ مستبشعٌ ثقيلٌ منْ أدّهُ الأمرُ، إذا أثقلَهُ، ولم يقوَ على تحمّلِه[2]، وهو المناسب لافترائهم، وهذا اللفظ من أفراد القرآن الكريم، وذكرَ في معناهما: العجبُ، أو هو المنكرُ العظيمُ، والأَدّ بمعنى الشّديدِ، وأدّني الأمرُ وآدني أثقلني[3]، فهو قولٌ منهم منكرٌ ثقيلٌ تكادُ أن تتفطّرَ منه السّمواتُ، وتنشقّ الأرضُ.

ولَمَّا كانَ الإدّ هوَ الدَّاهية، أو الشّيء العظيم أجرى الكلامَ على المبالغةِ تهويلًا وتخويفًا منْ فظاعةِ هذا القولِ؛ بما يجعلُهُ يبلغُ الجماداتِ العظيمةَ؛ فيقلبُ جوهرَها، ويغيّرُ صميمَها، ويبدّلُ كيانَها[4].

سرّ فصلِ جملةِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾:

استئنافٌ بيانيّ لتقريرِ عظيمِ شأنِه في الشّدّةِ والهولِ

قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ إما أن يكون صفةً لإدًّا، أو جملةً مفصولةً عمَّا سبقَها من كلام؛ لأنّها استئنافٌ لبيانِ عظيمِ شأنِه في الشّدّةِ والجسامةِ والهولِ[5] ناشئٌ عن سؤالٍ مفترضٍ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 44.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9193.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 566.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 171.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 282.

عن وصفِ مقالتِهم بالإدّ، أنْ: ماذا يحصلُ من مقالتِهم العظيمةِ المنكرةِ تلك؟ فالجوابُ أنّ السّمواتِ تكادُ تتفطّرُ منه.

ولأنّ قولَه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ تقريرٌ وتحقيقٌ لكونه إدًّا، فهوَ مرتبطٌ بما قبلهُ، وسببٌ لهُ، فمقاربةُ تفطّرِ السّمواتِ؛ لأنّهم أطلقوا تلكَ الكلمةَ الشّنيعةَ، فلمَّا كانَ كالتّأكيدِ فصَلَ الجملةَ[1].

بلاغةُ التعبيرِ بفعل المقاربة (كاد):

لـــولا رحـمـةُ الـلـه لانفطرت الـسّـماوات من عظيم القول

معنى فعل ﴿تَكَادُ﴾ مقاربة الشّيءِ، ودُنوُّ حصوله، أي أنّ الحقّ سبحانَه قاربَ أن يفعلَ هذا بالسّمواتِ والأرضِ والجبالِ غضبًا منه لما لهذه الكلمةِ من الهولِ، ولمن تفوّه بها، ولم يستعظمها[2]؛ فالجملةُ هنا منْ بابِ الاستعارةِ؛ لبشاعةِ وعظمِ هذا القولِ المنكرِ، فهذا هوَ حقّهُ لوْ قُدِّرَ للجماداتِ أنَ تفهمَ قدرَه[3].

بلاغةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾:

الإشـــارة إلى وحدةِ السّماوات في الغضبِ لأمرِ الله تعالى

جمعَ السّمواتِ لكونِهنّ سبعًا، وتعدادُها في سياقِ الآيةِ، ونسبةُ التفطّرِ إليهن يرادُ به شدّةُ الغضبِ الإلهيّ، لهولِ ما ادّعَوه، وعظيمِ ما افتروه؛ فالمتفطّرُ ليست سماءً واحدةً، بل هي السّماواتُ السّبعُ؛ ففي إسنادِ التّفطّرِ إلى جميعِ السّمواتِ دلالةٌ على هولِ مقالةِ السّوءِ منهم، بما يجعلُ السّماواتِ جميعًا لا تسلمُ ممَّا يحصلُ لها، حتَّى قيلَ إنَّ أعداءَ اللّه المتقوّلينَ كادوا أنْ يقيموا علينا السَّاعةَ[4].

نكتةُ التّعبيرِ بمفردة التّفطُّرِ:

التّعبيرُ بالتّفطّرِ في قولِه تعالى: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ على معنى "يتشقّقنَ مرةً بعدَ أخرى من عِظمِ ذلكَ الأمرِ"[5]؛ فالفعلُ دالٌّ على التّكثيرِ كنايةً عن هولِ مقالتِهم وبشاعتِها.

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 298.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 44.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 300.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 34.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 282.

دلالةُ التعبير بالمضارع ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾:

استحضارُ الصّورةِ فكأنّ تفطّرَ السّمواتِ محسوسٌ مشاهدٌ الآنَ

التّعبيرُ بصيغةِ المضارع المضعّف في قولِه: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، وهي صيغةٌ دالةٌ على التّجدّدِ والاستمرارِ[1] إن وقعت، وهي تصوِّر قوّة الحدث وتكراره، واستحضار الصّورةِ؛ فكأنّ مقالتَهم القبيحةَ المنكرةَ تلكَ أحدثت تفطّرًا في السّماواتِ يشاهدُه ويشعرُ به كلّ مَن سمعَ تلكَ المقالةَ الشنيعةَ.

بلاغةُ الكنايةِ في لفظ التفطّرِ والانشقاقِ:

في ظاعةِ الاعتقادِ الباطلِ خرابُ العالمِ وتفكُّكُ نظامِه

لولا حلمُه تعالى، ولطفُه بعبادِه، وعدمُ معاجلتِهم بالعقوبةِ لكان من فظاعَةِ تلكَ المقالةِ السّوءى في استجلابِ الغضبِ والسّخطِ، أن خُرّبَ العالمُ، وبدّدت قوائمُه من سماواتٍ وأرضين بالانفطارِ والانشقاقِ، بمدعاةِ الغضبِ على مَن نطقَ بذلكَ القولِ المنكرِ العظيم[2].

وجاءَ بجملتي تفطّرِ السّمواتِ، وانشقاقِ الأرضِ كنايةً عنْ هولِ تلكَ المقالةِ الشّنعاءِ، واستعظامًا لها؛ وتصويرًا لأثرِها في الدّين؛ فإنّها تهدمُ أركانَه، وتقوّضُ قواعدَه، وأنّ مثلَ أثرِها في المحسوساتِ مثلُ الأجرامِ العظامِ الّتي هي قوامُ العالمِ؛ فيصيبُها الخرابُ انفطارًا وانشقاقًا وخرابًا[3].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

القراءاتُ القرآنيةُ متضافرةُ المعاني متلاقيةُ الدلالاتِ

قرئَ قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ﴾ بالياءِ ﴿يَكَادُ﴾، وهي قراءةُ نافعٍ والكسائيّ[4] من غيرِ الاعتدادِ بالتّأنيثِ لتجرّدِ الفعلِ من الضّميرِ المتّصلِ، وقرأ الجمهور بالتأنيث.

وقرأَ أبو عمرو وابنُ عامرٍ وشعبة وحمزةُ ويعقوب وخلفٌ ﴿يَنفَطِرْنَ﴾ بالنّونِ[5] من (انفطرَ) المطاوعِ، كقولِه تعالى: ﴿إِذَا

(1) ابن السراج، الأصول في النحو: 1/ 210.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 45.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 45.
(4) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 413.
(5) ابن مهران، المبسوط، ص: 291.

﴿ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ [الانفطار: 1]، أمَّا قراءةُ نافع وابن كثير وحفص والكسائي وأبي جعفر ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ فهي من بابِ التّضعيفِ الدَّالِّ على تكرارِ الفعلِ[1].

معنى حرفِ (من) ودلالته:

سببُ تفطّرِ السّماواتِ القولةُ القبيحةُ

أفاد حرف الجرّ (من) في قولِه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ التّعليلَ والسّببية؛ فإنّ تفطّرَ السّمواتِ حاصلٌ بسببِ مقولتهم؛ فالضّميرُ راجعٌ إلى قولِه: ﴿شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾، الذي هو القول المستفادِ من: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾[2]، وهو الأولى بالقبولِ.

بلاغةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَتَنشَقُّ﴾:

الإيماءُ إلى أحداثِ القيامةِ وكيفيّةِ حصولها

لهولِ هذه الكلمةِ صوّرَ الحقّ سبحانَهُ المشهدَ كأنَّ الأرضَ تنشقُّ نصفين، وهذا هوَ شأنُ الصّيغةِ المضارعيةِ في تصويرِ الحدثِ كأنّهُ حاصلٌ اللّحظةَ، تقريبًا لصورته إلى أذهانِ المخاطبينَ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الأمر سيكون في نهايةِ العالم، فاللّه ﷻ لا يخبر عن أمرٍ بالكادِ وقوعه في الدُّنيا إلا واحتمال وقوعه حاصلٌ في المستقبل.

نكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ الانفعال للأرض والتفعّل للسماوات:

عبّرَ عنْ تأثرِ الأرضِ بما ادّعوهُ من القولِ الدَّالِّ على الشّناعةِ والقباحةِ والجرأةِ باتّخاذه ولدًا ﷻ عنْ ذلكَ، فقالَ: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ فاختارَ صيغةَ الانفعالِ (الانشقاق) للدّلالةِ على انتفاءِ الكثرةِ في المفعولِ[3]؛ لأنّ التشقّق دالّ على الكثرةِ، ولا كثرةَ هنا.

وعبّرَ عمَّا يحدثُ للسّماواتِ بموجبِ كلمتِهم العظيمةِ المنكرةِ فقالَ: ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾[4]، فيما جاءَ معَ الأرضِ بقولِه: ﴿وَتَنشَقُّ﴾،

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 44.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 170.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 454.
(4) على قراءة من قرأ بصيغة التفعّل لا بصيغة الانفعال، كما تقدّم.

والجوابُ عن ذلكَ أنّ التفطّر تفعُّلٌ يدلّ على تكثيرِ الفعلِ وهو أوضح مع السّماواتِ وذلك لقداستِها، وعدمِ حصولِ العصيانِ فيها، فلم يكنْ لها عهدٌ بالمعصيةِ؛ فتأثّرُها أكبرُ من تأثّرِ الأرضِ بالمعصيةِ[1]، كما أنَّ الانفطار مستعمل فيها.

نكتة تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ على الانفطار وتأخيرِ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ عن الانشقاق:

قُدِّمَ ذكرُ السّماواتِ - التي هي موضعُ العنايةِ الإلهيّةِ - على الفعلِ ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾؛ لبيانِ صعوبةِ الحدثِ، وهولِ المشهدِ، وعظمِ المقولةِ التي جاؤوا بها حتّى لكأنّ السّماواتِ على عظمتِها وسعتِها وتعدّدِها يتفطّرن منه، وتقديم السماوات يفيد التشويق لمعرفة الخبر، فلما جاء الإخبار عن الأرض بدأ بالفعل باعتبار توقعه، ومعرفة الذي سيُقال قياسًا على السماوات.

قدَّم السماوات على الفعل للتشويقِ وأخَّر الأرض باعتبارِ هول الحدث

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وإفرادِ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾:

جاءَ التّعبيرُ عن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ جمعًا، فيما جاءَ عن ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مفردًا، وسببُ ذلكَ أنَّ السّمواتِ من أجناسٍ مختلفةٍ؛ فكلُّ سماءٍ منْ جنسٍ مختلفٍ عنْ الأخرى، أمَّا الأرضُ فكلّها منْ جنسٍ واحدٍ وهوَ التّرابُ.

السّماواتُ مقترنةٌ بالتّفطّرِ الدّالِّ على الكثرةِ والانشقاقُ معَ الأرضِ بالإفرادِ

وفي مخالفةِ الإفرادِ والجمعِ بينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ و﴿ٱلْأَرْضُ﴾ لطيفةٌ، وهيَ مجانسةُ اللفظِ لقرينِه؛ فإنّهُ أوردَ السّمواتِ جمعًا؛ لاقترانه بفعلِ التّفطّرِ المضعّفِ الدّالِ عادةً على الكثرةِ فتشابها منْ هذه الجهةِ، فيما أوردَ الأرضَ مفردةً؛ لاقترانِها بفعلِ الانفطارِ الّذي لا يدلُّ على الكثرةِ؛ فإنَّ الانفطارَ هوَ الانشقاقُ نصفينِ فتشابها منْ هذه الجهةِ.

معنى تعريفِ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ ودلالته:

أوردَ لفظَ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ معرفةً تعريفًا للعهدِ، أي: الأرضُ الّتي يعيشون عليها، ويعهدونَها مستويةً ينتفعون

الاعتقاد الباطل يؤول إلى الفساد العام

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 454.

منها، فكيف لو انشقّت بمدعاةِ قولِهم المنكرِ العظيم باتّخاذِه سبحانَه ولدًا تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ فالاعتقاد الباطل يولِّد الفساد الدائم.

معنى (الواو) ودلالتها:

عطفٌ على ما سبقَ أي تكادُ الجبالُ أن تسقطَ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ عاطفةٌ، فهذه الجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ على تقديرِ تكادُ الجبالُ تسقطُ[1]؛ زيادةً في بيان هَول الموقفِ، ومبالغةً في التّقبيحِ عليهم؛ بالجمعِ بينَ تشقّقِ الأرضِ، وسقوطِ الجبالِ.

بلاغةُ الكنايةِ في فعلِ ﴿وَتَخِرُّ﴾:

سقوطُ الجبالِ دفعةً واحدةً دليلُ الغضبِ المهولِ

عبّرَ عن السّقوطِ المهولِ بالخرورِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾؛ لأنّ الخرورَ هو السّقوطُ دفعةً واحدةً مثلَما يخرّ الحائطُ[2]، وما ذاكَ إلّا لعظمِ المؤثّرِ وهولِه، كنايةً عن تلكَ الكلمةِ العظيمةِ المنكرةِ في ادّعائِهم اتخاذَ الحقّ سبحانَه ولدًا.

دلالةُ التعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَتَخِرُّ﴾:

تصويرٌ لسقوطِ الجبالِ كأنّه حاصلٌ اللّحظةَ

صوّرَ المشهدَ المتحرّكَ في سقوطِ الجبالِ تصويرًا رائعًا، فجاءَ بصيغةِ المضارعِ الدّالّ على الحالِ بقولِه: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾، فكأنّ الجملةَ قد بلغت من وضوحِها وخصوصيتِها أنّ الجبالَ تخرّ وتسقطُ الآنَ أمامَ الأعينِ النّواظرِ بفعلِ قولِهم الّتي تنكرُه العقولُ، وتشمئز منه النفوس، وتعافه القلوب، مع الإيماء إلى احتمال وقوع ذلك في المستقبل إن بقوا على مقالتهم تلك دون ارعواءٍ عنها.

تعريف ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾، وجمعها:

خرورُ الجبالِ مشتقٌّ لجميعِ جبالِ الأرضِ

التعريف في لفظِ ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ للاستغراق؛ ففظاعةُ كلمتِهم تجعلُ الجبالَ أيَّ جبالٍ، تخرُّ منها، وإنْ تعدّدت مجموعةً، والذي يظهر أنَّ الجمع يستغرق جميع جبالِ الأرض، كما أنَّ الأرض كلَّها ستتشقق.

(1) بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصل: 7/ 68.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 134.

بلاغةُ القيدِ بالمصدرِ ﴿هَدًّا﴾:

ارتباطُ الفسادِ المحسوسِ بالفسادِ الاعتقاديّ

الهدُّ من قولِه تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ بمعنى أن يُهدمَ البناءُ، وهو مصدرٌ للفعلِ هددتُ[1] منصوبٌ على أنّه مفعولٌ مطلقٌ بيانًا لنوعِ الخرورِ والسّقوطِ، أي: سقوطُ الهدمِ شظايًا وقطعًا[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ قولهم المأفوك هو سبب هدم الجبالِ، كما أنَّ فيه إشارةً ناصعةً إلى أنَّ ما يحصل في المحسوسات من فسادٍ فهو ناشئٌ عن فسادٍ اعتقاديٍّ.

توجيه اختلافِ النّحاةِ في إعراب ﴿هَدًّا﴾:

حالٌ أو مصدرٌ أو مفعولٌ له حاصلُه تقريرٌ لوصفِ الإدّ

اختلف النحاة في الاسمِ المنصوبِ من قولِه تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾، بين أنْ يكون حالا للجبالِ، وهو مصدرٌ مؤكّدٌ لمحذوفٍ على معنى (تُهدّ هدًّا)، وبين أن يكون مصدرًا من المبنيِّ للمفعولِ، مؤكّدًا لتخِرُّ معناه التّهدّم، كأنّه قيلَ: وتخِرّ الجبالُ خرورًا، وبين أنْ يكونَ مصدرًا منصوبًا على الحاليةِ بمعنى المفعولِ على تقديرِ مهدودةً، وبين أن يكون مفعولًا لأجلِه دالًّا على العلّةِ، أي: لأنّها تُهَدّ، وحاصلُ خلافِهم أنّه تقريرٌ وتحقيقٌ لكونِه إدًّا، وهو الدّاهيةُ والأمرُ العظيمُ[3].

تعليلُ جملةِ ﴿أَن دَعَوْا﴾ للأفعالِ المتقدِّمةِ:

ربَّ مقالةٍ ذميمةٍ بشأنها تقع أحداثٌ جسيمة

تقعُ جملةُ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ موقعَ التّعلقِ بكلٍّ من جملةِ ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، وجملةِ ﴿وَتَنشَقُّ﴾، وجملةِ ﴿وَتَخِرُّ﴾ على أنّ حرفَ الجرّ محذوفٌ وهو اللّام[4]، والمعنى حصولُ كلّ هذه الأفعالِ المهولةِ من التّفطّرِ والانشقاقِ والخرّ بسببِ مقالتِهم الذّميمةِ في ادّعائِهم أنّ للّه ولدًا.

(1) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 2/ 461.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 171.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 282.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 171.

معنى ﴿أَن﴾ ودلالته:

﴿أَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ حرفٌ مصدريّ[1]، جيءَ به لمعنى التّأكيدِ ممَّا أفيدَ من الجارّ والمجرورِ من قولِه: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾، وزيادةُ بيانٍ لمرجعِ الضّميرِ المجرورِ اعتناءً به[2].

مناسبة استعمالِ مفردةِ ﴿دَعَوْاْ﴾:

مشابهةُ (دَعَوْا) لمعنى نسبوا الولدَ

لَمَّا كانَ معنى ﴿دَعَوْاْ﴾ هو نسبةُ الولدِ إليه تعالى عن ذلكَ علوًّا كبيرًا، وهو كالادّعاءِ إلى بني فلانٍ وفلانٍ، وهو الانتسابُ إليهم كقولِه تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: 5][3]، استعملَ هذا الفعلَ، ولم يستعملْ غيرَه ممَّا يرادفُه في المعنى، مثل (زعموا) و(ادّعوا) وغيرهما.

بلاغةُ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغَيْبَة:

التفاتٌ فيه تحقيرٌ لشأنِهم لجرأتهم وتنبيهٌ على عِظَم قولهم

لَمَّا خاطبَهم الحقّ سبحانَه بقولِه: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ عدلَ عن خطابِه إلى الغَيبةِ بقولِه: ﴿أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ على طريقةِ الالتفاتِ، وتلوينِ الخطابِ القرآنيّ، والغايةُ من هذا العدولِ الإعراضُ عن خطابِ هؤلاءِ، وتحقيرًا لشأنِهم، و"زيادةُ تسجيلٍ عليهم بالجرأةِ على اللّه، والتّعرضِ لسخطه وتنبيهٌ على عظيمِ ما قالوا"[4]، وما كانَ منهم بدعواهُم اتّخاذه سبحانه ولدًا.

دلالةُ لام الجرّ، وغرضُ تقديمِ ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ على المفعولِ:

تفظيعُ أن يكون للرحمن ولدٌ وتشنيعٌ على قائليها

اللَّامُ تدلّ على الملكِ، وقدّمَ الجارّ والمجرورَ على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ والحصرِ، فكأنّهم دعوا للرّحمنِ لا لغيره الولدَ، مبالغةً في ذمّهم وتقبيحِ فعلِهم؛ لأنَّ اختصاصَ الحقِّ سبحانَهُ باتّخاذِ الولدِ فيه من الشّناعةِ

(1) الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 681.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 171.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 171.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 300.

والفظاعةِ ما لا يكونُ لوْ لم يقدّمه، بأن يقالَ: أن دعوا ولدًا للرّحمنِ، فيحتملُ المعنى غيرَ الحصرِ، ففيه توبيخٌ وتفظيع أن يكون ذلك للرحمن ﷻ عمَّا يقولون.

لطيفةُ اصطفاءِ اسمِ ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ في تقييدِ دعواهُم الولدَ:

رحمةُ اللهِ سبحانَه وسِعَت العالمين فكيفَ يكونُ مختصًّا بولدٍ

اصطفى النظم الكريم اسمَ الرّحمنِ في تقييدِ دعواهُم، مع تكريره مراتٍ عدّةٍ، وفائدتُهُ أنّهُ هوَ الرّحمنُ وحدَهُ، فهوَ الجديرُ بهذا الاسمِ؛ فالنّعمُ كلّها منهُ أصولًا وفروعًا، وهوَ منْ أوجدَ العالمينَ، وأوجدَ لهم جميعَ ما معهم، فهلّا انكشفَ بصرُكَ بأنّك وجميعَ ما عندكَ عطاءٌ منْ عطاءاته[1].

ولمّا كانَ الحقّ سبحانَه رحيمًا بالجميعِ ذكرَ في الآية بوصفِ الرّحمةِ البالغةِ بقولِه: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾، فمنْ كانَ هذا وصفُه كيفَ يكونُ مختصًّا بالولدِ أو بغيرِه، ورحمتُه شاملةٌ للعالمين[2].

دلالةُ حذفِ المفعولِ الأوّلِ للفعلِ ﴿دَعَوْا﴾:

اقتصرَ على الثاني طلبًا للعمومِ والإحاطةِ

وفي قولِه: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ حذفَ المفعولَ الأولَ للفعلِ ﴿دَعَوْا﴾ بمعنى: سمّوا، تقديرُه: (سَمَّوْا معبودَهُم ولدًا للرّحمنِ)[3]، فاقتصرَ على أحدِ المفعولين؛ لإرادةِ العمومِ؛ وليدخلَ في هذا القولِ كلّ من ادّعى له ولدًا.

سرّ إفرادِ ﴿وَلَدًا﴾ وتنكيره:

أُفرِدَ لفظُ الولدِ في قولِه تعالى: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾؛ لأنّ هذه اللّفظةَ تقعُ على الواحدِ والاثنينِ والجماعةِ[4]؛ ليكونَ شاملًا عامًّا لكلّ من يدّعي للّه ولدًا على مرّ العصورِ والأزمانِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 45.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4689.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 302.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 997.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخرّ والهويّ والسقوط:

خــرَّ الـجـبـالِ سـقـوطٌ مـقـترنٌ بالصّوتِ والهويُّ نزولٌ أو هلاكٌ أو عذابٌ

في قولِه تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ عبّرَ عن سقوطِ الجبالِ بهذه الطّريقةِ المروّعةِ فزعًا منْ كلمتِهمُ المنكرةِ العظيمةِ باتّخاذه سبحانَهُ ولدًا تعالى اللّهُ عنْ ذلكَ علوًّا كبيرًا؛ فأسندَ الخرّ للجبالِ، ولم يعبّرْ بالسّقوطِ؛ لأنَّ الخرّ هوَ السّقوطُ المقترنُ بالصّوتِ الّذي يسمّى خريرًا[1]، فهوَ ليسَ سقوطًا مجرّدًا، فلا يحسنُ التّعبيرُ عنْ ذلكَ المشهدِ بالسّقوطِ حسب، ولم يعبّر عنهُ بالهويِّ معَ أنّهُ مقاربٌ لهُ في المعنى، فهوَ الخلوّ والسّقوطُ، وهوَ الذّهابُ في انحدارٍ، وأصلُه من الهواءِ بينَ الأرضِ والسّماءِ[2]، يقولُ تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: 1]، وعمومُ لفظِ الهوي وما اشتقّ منه في القرآنِ الكريمِ يكونُ بمعنى النّزولِ أو الهلاكِ أو الذّهابِ[3]، وليسَ ذلكَ منْ هذه المعاني مناسبًا لخرّ الجبالِ بمعنى سقوطِها بمدعاةِ ما تفوّهَ به الكافرونَ الظّالمونَ.

الإدّ والداهية:

الإدّ تـعـجّـبٌ مشوبٌ بالإنكارِ الـعـظـيـمِ والـدّاهـيـةُ اسمٌ جامعٌ لما عَظُمَ من الأمورِ

قالَ تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ عبّرَ عن العجبِ المنكرِ من الأمرِ الشّديدِ بالإدِّ، والعجبُ هوَ أنْ يُستعظَمَ الشّيءُ؛ لأنَّ سببهُ يخفى عليكَ[4]، أمّا الدّاهيةُ فاسمٌ عامٌّ لكلِّ ما عظمَ من الأمورِ، فقيلَ عن الفاقرةِ داهيةٌ، وقيلَ عن الصّاخّةِ داهيةٌ، وكذا الطّامةُ فهيَ تطمّ كلَّ شيءٍ، أيْ: تعمّهُ وتغطيه[5]، ويفهمُ منْ ذلكَ وقوعُها على معانٍ كثيرةٍ، وربّما تجاوزَ ذلكَ إلى المدحِ، وعامّةُ هذه المعاني غيرُ مقصودةٍ في الآيةِ، إنّما القصدُ التّعجبُ المشوبُ بالإنكارِ العظيمِ؛ فإنّهم قالوا

(1) الراغب، المفردات، ص: 277.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هوي).
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 638.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 31.
(5) السجستاني، غريب القرآن، ص: 320.

قولًا عظيمًا منكرًا تكاد تزول منه الجبال الرواسي من شنع مقالتهم وتفاحش جهالتهم[1].

الانفطار والانشقاق:

جاءَ بفعلين متباينين في قولِه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾، فأسندَ التّفطّرَ للسّمواتِ، فيما أسندَ فعلَ الانشقاقِ للأرضِ، والأصلُ في التّفطّرِ الإخراجُ من العدمِ إلى الوجودِ، كأنّه يشقُّ عنه فيخرجُ، فيقالُ تفطّرَ الشّجرُ إذا تشقّقَ بالورقِ[2]، فالتّفطّرُ هو مبتدأُ الانشقاقِ، والانشقاقُ مؤذنٌ بانقسامِ الأرضِ نصفين، فيما يكونُ التّفطّرُ للسّمواتِ قصدًا لكثرةِ الشّقوقِ فيها بما يعطيه الفعلُ المضعّفُ من خاصيةِ الكثرةِ، فانشقاقُ الأرضِ واحدٌ، وتفطّرُ السّمواتِ متعدّدٌ.

انشقاقُ الأرضِ واحدٌ وتفطّرُ السّماواتِ متعددٌ متكاثر

الهدّ والهدم:

عبّرَ عن سرعةِ تفتتِ الجبالِ بعدَ الخرورِ والسّقوطِ بالهدّ في قولِه تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾، فالهدمُ هو إسقاطُ البناءِ على الغايةِ من القوّةِ والشّدّةِ، والفرقُ بينَهما أنّ الهدّ هدمٌ لكنّه متّصفٌ بالوقعِ الشّديدِ لثقلِه[3]؛ فيصدرُ عنه الصّوتُ الشّديدُ، وما صدور الصّوتِ المفزعِ إلّا لانهدامِ البناءِ وتفرّقِه في تسارعٍ[4]، وما ذاكَ إلّا كنايةٌ عن عظمِ مقالتِهم الشّنيعةِ تلك، فخلاصةُ الفرقِ بين اللفظينِ أنّ الهدّ مشتملٌ على الهدمِ وزيادةٍ.

الهدّ هدمٌ مع الشّدّةِ والصّوتِ كنايةً عن عظمِ مقالتِهم

(1) العلوي، الطراز لأسرار البلاغة: 1/ 112.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 407.
(3) الراغب، المفردات: (هدد).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 34.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»